

ياسر الشاذلي..

(13) البئر

وسط عتمة الليل تقدّمت بخطى متوجّسة. تخوض وحدها طريقاً لا يخوضه أشجع الرجال إلا في جماعة ومسلحين.

ولكن نار الغضب والحقد بداخلها تمحنها قوة وصلابة. يداها تقبض بقوة على ما أخفته بطرحتها السوداء، تشعر أنها ليست هي! بل شخص آخر أقوى وأقدر، اقتربت بين صفيين من الأشجار الباسقه حتى بلغته..

البئر المهجور مصدر الرعب والأساطير التي لاتنتهي في القرية. ولكنها لا تهتم.. الليلة هي الرعب، لو خرج لها ألف عفريت ومارد لنزلتهم وهزمتهم، أخرجت من تحت طرحتها سبب قوتها وشعورها بالتفوق.. رضيع لم يتجاوز الشهرين، رفعته وتأمّلته بقسوة وكراهية. ساكن صامت صمت أبدي بعد أن كتّمت أنفاسه منذ قليل، من؟! من الجن والشياطين يقوى علي فعل ما فعلت؟

أن يتأمّل هذا الوجه البريء الملائكي ثم يقدم على قتله! هي فعلتها بثبات وبلا تردد، تقدّمت في الفراغ المحيط بالبئر وهي تهمس بصوت كالفحيح:

- لقد أقسمت لأحرقن قلبك أيتها العاهرة المتفاخرة، وقد صدقت، هاك رضيعك جثة ستتعفن في البئر ولن تجدي له أثراً.

كانت قد بلغت حافة البئر ورفعته عندما شفق الرضيع بين يديها؛ فأجفّلت تردّدت لثوانٍ وهي تراه يتحرك بين يديها تتلاحق أنفاسه، أرادت الرحمة أن تستيقظ من موتها بداخلها؛ فسارع الحقد

والكراهية لوأدها، فاستجابت لهم وسارعت تُلقِي بالرضيع في البئر وسط صراخه الفزع المتألم المكتوم، وقفت لاهسة على أطراف البئر حتى سمعت ارتطام جسد الرضيع وصمت صرخاته. عندها -وعندها فقط- غادرها شعور القوة والقسوة الزائف؛ فقد أدّت مهمتها، ذهبت الشجاعة المدعاة وعادت مُجرمة فِرْعَة تلتفتت حولها مرعوبه.

هل ترى حول الأشجار ظلالاً سوداء طائفة تتوازي وتظهر؟ أم تتوهم؟

وعلي الأرض هل تزحف صوبها ألوف الحيات السوداء؟ أم هو خيال؟

اللعنة! هناك وحش يتسلّق بجدران البئر آتٍ إليها تسمع احتكاك مخالبه... انطلقت تجري هاربة من خيلات الوهم المرعب لا تلوي علي شيء.

بعد الحادث بيومين قبل غروب الشمس كانوا هناك في البقعة الخالية حول البئر أربعة من شباب القرية، كما اعتادوا منذ طفولتهم.. يتسلّلون إلى ذلك المكان يمارسون اللعبة المفضلة للأطفال.. عصيان أمر الكبار وتحذيراتهم وإشباع الفضول، ثم لعبة إثبات الرجولة والشجاعة في شرح المراهقة الأول، ثم لعبة نحن رجال مثقفون ناضجون لا نخاف من أساطير العجائز.

كان أحدهم يتحدث بحماس:

- لن يستمر الوضع هكذا، رياح التجديد آتية، لن يصبر الشعب على هذا الفساد والظلم صدقوني.. أقرب مما تتوقعون.

أحدهم ضاحكاً وهو يشير لثالثهم:

- إهدأ يا (جاد).. معنا شرطي هنا.

(جاد) بثبات:

- (عدنان) مثله مثلنا.. من الناس.. يشعر بالظلم والفساد يا (حكيم).

(عدنان) ضاحكًا:

- أولاً أنا في أجازة، عملي في العاصمة، ثانيًا (جاد) ليس صديق، بل أخ عزيز.. فخر القرية. يكفي أنه من القلة الذين يدرسون في الجامعة؛ فهو جاري أيضًا في العاصمة.

أشار (حكيم) للرابع الذي يجلس شاردًا:

- هاي (فواز) ما بك يا رجل؟

(فواز) بقلق:

- الغروب اقترب، همُّوا بنا نغادر هذا المكان.

(عدنان) ضاحكًا:

- ما زلت تخاف البئر وتصدق حكايات العجائز.

قالها ثم رفع حجر وقذفه بقوة نحو البئر؛ فاصطدم بفوهته الحجرية ثم هوى داخله، أجفل (فواز) وقال بتوتر:

- لماذا فعلت ذلك يا (عدنان)؟

(حكيم) وهو يصوب حجرًا نحو الفوهة مباشرةً:

- انظر كيف يكون التصويب يا شرطي، وأنت يا (فواز).. طوال هذه السنين وما زلت تهاب البئر!

(جاد) وهو يرفع حجراً فيلقيه في البئر:

- يا (فواز)، هذه قصص للتسلية، أجدادنا يحكون عن حدث سمعوا عنه ولم يعاصروه، الأجانب الذين أتوا يحفرون هنا وفي القرى المحيطة.. والتماثيل المرعبة.. واللوحات الحجرية المنقوشة التي استولوا عليها وهربوها.

(حكيم):

- أجل، والقصة كلها مصدرها شخص يُدعى (زيدان) المخبول، كان يدور في القرى ويدعي أنه كان معهم ورأى ما رأى.

(جاد) وهم يهمون بالرحيل:

- ما الأخبار؟ هل عثروا على الرضيع المختفي؟

(حكيم) بأسى:

- كلاً.. كان الله في عونهم، وكأن المصائب لا تأتي فراداً، زوجة عمه داهمتها سيارة على الطريق ولقيت مصرعها، يقولون أنها من يوم اختفائه ذهب عقلها من الصدمة، وكانت كالمجنونه حتى لقت ربه.

بعد الحادث بأسبوع...

لم يهتم رئيس الوردية الليلية في المصنع لهيئة (حكيم) المرعبة بنظراته الشاحصة ببريق مرعب، ولا جلسته الثابتة بجوار الآلة التي

تدور، ولا مشيته المتصلبة نحوه صامتًا بينما يرفع عقبرته له بالسباب والتقريع.

لم يدقق النظر في ملامح وجهه التي اكتست بتوحش لم يعتدُّ أحد من (حكيم)، ولكن (حكيم) كان يدقق النظر باهتمام في تفاحة آدم البارزه في عنق رئيس الوردية. اهتمام شديد حتى أنه أطبق فكّيه عليها وانتزعها نزعًا، قبل أن يلتفت بوجه غارق بالدماء لزملائه الذين جمدهم الرعب، ويزأر زفيرًا ارتجّ له المكان وهو يتقدم يرفع أحدهم ويدفعه متحطّمًا على الجدار، بينما يقبض على عنق الثاني ويلقي به ممزقًا على السير.

في نفس الوقت هناك في العاصمة وسط الظلام، كان (عدنان) يعوي عواءً لا يخرج من بشرمهما حاول وهو يسحق رأس شاب بضربة واحدة من هراوته. بينما امتدت يده الأخرى نحو فتاة بجوار الشاب تصرخ بهلع، ينزع فكّها السفلي؛ فأخرسها للأبد.

كثيرون سيرجعون أسباب المصادمات الدامية التي اجتاحت البلاد لهذا الحادث، أو للحادث الآخر عندما اندفع (جاد) وهو يطلق صيحات هادرة، ويقفز على عنصرٍ شرطي في تأمين مظاهرة، ويضرب رأسيهما ببعضهما البعض؛ فيسحقها سحقًا، قبل أن يقق بأصابعه عيني ضابط ويلفّ عنقه عدة مرات حتى نزعها عن جسده، ويقف يرفعها وهو يطلق صيحات مجنونة.

بعد الحادث بأسوعين...

هو يعرف، لم يصدقوه، وما هم يدفعون الثمن، بل والبلد كلها تدفع الثمن، ولن يصدق أحد لو تكلم!

كان (فواز) منكمشاً على نفسه في فراشه مرعوباً، بالرغم من خوفه تأمل الأوراق الصفراء شديدة القدم، الأوراق التي أخذها جدّه من (زيدان) المخبول.

تأمل الرسومات الباهته التي نقلها الأثري الأجنبي من المنحوتات الحجرية التي كانت في المنطقة، رسومات تظهر البئر وحشداً من البشر الذين يقفون حوله يُلقون الأحجار بداخله، وثم كيانات سوداء مرعبة تحلّق في السماء حولهم.

لذلك كان يهاب البئر، ولذلك لم يلقِ بحجر مثلهم، ولذلك نُجّي إلى حين.

عشرة آلاف عام قبل الحادث..

عند غروب الشمس..

هناك في الساحة المترامية الأطراف اصطفّ العشرات من الرجال المفتولي العضلات عراة الأجساد تماماً، وقد غطّت وجوههم الأصباغ.

عيونهم شاخصة إلى البئر؛ حيث وقف الكاهن يتلو صلاةً إلى وثن يصوّر مسخاً مخيفاً على قاعدة خلف البئر.

البئر الذي لا يعلمون عنه إلا أنه سحيقٌ في باطن الأرض حيث الآلهة تسكن.

دوى صوت؛ فظهرت.... متشحةً بالسواد.. نائرة الشعر.. طويلة المخالب.. تبرق عينها وتزمجر... كاهنة الغضب والنقمة المكلفة بتقديم القربان، اقتربت وهي تطلق صرخات مرعبة حتى بلغت البئر، ناولها أحد السدنة القربان المطلوب؛ رضيع عمره شهر، تلقفته بعنف وهي تصرخ، وحملته بذراعها في مواجهة الوثن، ثم ألقت به في غياهب

البئر، ثم رفعت رأسها وعيناها شاخصة إلى أعلى، ورفعت يداها مشيرة وكفاها مبسوطتان، وصرخت بكلمات غير مفهومة، عندها انطلق الصوت الأمر للرجال؛ فتقدم كل منهم يحمل حجراً ويلقيه في البئر، وما أن يفعل حتى يشعر أنه قد حاز قوة ونقمة وغضب عشرة مقاتلين.

حصل الإله على قربانه: فأرسل أرواح القوة تمتاز بأجساد المقاتلين، سيهلكهم الأمر ولكن بعد أن يكونوا قد دمروا الأعداء.